من القرآن الكريم

للاستاذ سميع عاطف الزين

سورة التكوير

تعالج ثلاث حقائق لا تنقطع صلتها بالعقيدة و الايمان :

١- حقيقة الانقلاب الكونى .

" اذا الشمس ، كورت ، و اذا النجوم انكدرت ، و اذا الجبال سيرت ، و اذا العشار عطلت ، و اذا الوحوش حشرت و اذا البحار سجرت ، و اذا النفوس زوجت ، و اذا المؤودة سئلت ، بأى ذنب قتلت ، و اذا الصحف نشرت ، و اذا السماء كشطت ، و اذا الجحيم سعرت ، و اذا الجنة أزلفت ، علمت نفس ما احضرت " .

٢- حقيقة الوحى الخالد و الدعوة العالمية .

" فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، و الليل اذا عسعس ، و الصبح اذا تنفس ، انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، و ما صاحبكم بمجنون ، و لقد رأه بالأفق المبين ، و ما هو على الغيب بضنين ، و ما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون ، ان هو الا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم " :

٣- حقيقة الارادة الانسانية المرتبطة بمشيئة الله العليم الحكيم .

و ما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين .

أما الانقلاب الكونى فيبدو فى مطلع السورة هائلا مروعا ، يشمل الشمس التى بردت و انطفأت شعلتها ، و النجوم التى اندثرت و انطمس ضياؤها ، و الجبال نسفت و ذريت هباء فى الهواء ، و سيرت كالسراب و مرت مر السحاب ، و النوق الحبالى فى شهرها العاشر و قد أهملت

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

من الفزع فى كل مكان مع أنها لدى العربى أجود النياق ، و الوحوش الشاردة فى الشعاب ، و قد تجمعت من الهول و تلاصقت منها الجنوب و البحار التى التهبت مياهها حتى تفجرت بالنيران ، و فاضت بالحميم و المحرقات ، و الأرواح المتجانسة ، و قد انضم بعضها الى بعض ، فى زمر و أزواج ، و الأنثى التى وئدت فى غلظة يطرح عليها وحدها سؤالا ، و تخص وحدها بالاستجواب : ما سر وأدها ، و كيف يكون حساب من أقدم عليه و هى على قيد الحياة ،

و يشمل هذا الانقلاب الكونى أيضا ، نشر صحف الاعمال حتى لا تخفى يومئذ خافية ، و اذا السقف المرفوع فى القبة الزرقاء ، و تسعير الجحيم ، و اذكاء حرها بوقودها من الناس و الحجارة و تقريب الجنة من السعداء حتى لتبدو كالعروس فى زينتها تغرى خطيبها بالدنو منها و الالتصاق بها و استنشاق عبيرها ، فيومئذ تعلم كل نفس ما قدمت و أخرت ، و ما أحضرت من زاد يخفف عنها شيئا من العذاب .

و تمهيدا لذكر الحقيقة الثانية المتعلقة بالوحى و طبيعته ، ينتقل السياق الى قسم رشيق أنيق بمشاهد من الكون ، خلعت عليها الحياة و قذفت فيها الروح فبالكواكب التى تجرى فى السماء ثم تعود لتوارى فى أفلاكها كأنها الظباء تعدو رشيقة ثم ترجع الى كنسها فتختبىء فيها و تلتمس الراحة بعد العدو الشديد ، و بالليل الذى لف الكون بسواده حتى بات لا يرى نفسه و لا يبصر دربه فهو يتخبط فى سراه تخبط الاعمى و يجس بيده كل شىء فى الظلام مجسة الاعمى ، و بالصبح الذى ولد بعد ذهاب الليل فأبصر النور و تحرك و تفتح قلبه للحياة ، فخفق و تنفس بهذه المشاهد الكونية الحية ، أقسم الله أن لا دخل لمحمد فى الوحى ، و انما يلقنه اياه بأمر ذى العرش ملك كريم ، له من القوة ما يمكنه من حمل أمانة السماء الى أهل الأرض ، و له من

المكانة ما يجعله مطاعا من الملائكة جميعا فى الملأ الاعلى. و بهذه المشاهد الحية أقسم الله أن محمدا أمين على الوحى ، راجح العقل و قد صاحبه أهل مكة أربعين عاما قبل أن يبعثه ، فعرفوه و سموه الصادق الأمين ، و ها هو ذا الآن يخبرهم بأنه رأى ملك الوحى بعينه فى الأفق الواضح المبين الذى لا يرتفع عنده البصر و لا يطغى ، فكيف يظنون به الظنون و كيف يزعمون أنه مجنون تتنزل عليه الشياطين ، فى هذا المقطع نفسه يذكر الله أهل مكة بأن هذا الوحى لم يوجه اليهم وحدهم ، بل هو دعوة عالمية ، لا بد أن تنتصر مهما قاوموها الآن و طاردوا المؤمنين . و باب هذه الدعوة مفتوح على مصراعيه لكل من أراد أن يستقيم على الحق و الهدى.

أما الحقيقة الثالثة فقد ختمت بها سورة التكوير بأية واحد حاسمة جازمة ، قررت بأن الارادة الحقيقية الفاعلة هى ارادة الله سبحانه و تعالى ، فما لأحد ارادة منفصلة عن ارادة العليم الخبير ، بل هو الذى قدر فهدى ، و ألهم الانسان ارادة بها يختار ، و لو لاها لما شرف بالتكليف.

القراءة على السبعة أحرف

(حديث شريف) : ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه ، فاللفظ القرآنى لا يخرج عن هذه الأحرف السبعة ، مهما تعدد أداؤه و تنوعت قرأته.

١ـ فالاختلاف فى وجوه الاعراب سواء تغير المعنى أم لم يتغير ، مثل قوله تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلمات ـ فقد قرىء (فتلقى آدم من ربه كلمات) و مما لم يتغير فيه المعنى مثل قوله تعالى (و لا يضار كاتب و لا شهيد) فقد قرىء (و لا يضار).

٢ـ الاختلاف فى الحروف اما بتغير المعنى دون الصورة ، و هو

ما يعبر عنه أحيانا بالاختلاف فى النقط مثل (يعلمون و تعلمون) و اما بتغير الصورة ، دون المعنى ، مثل : (الصراط و السراط) (و المصيطرون و المسيطرون) و قد رسم بالمصاحف بالصاد المبدلة من السين التى هى الأصل فوافقت قرأة الصاد رسم المصحف تحقيقا و قراءة السين رسم المصحف تقديرا .

٣- اختلاف الأسماء فى افرادها و تثنيتها و جمعها و تذكيرها و تأنيثها مثل : (و الذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون) فقد قرىء لأمانتهم بالافراد ، و مؤدى الوجهين واحد ، لأن فى الافراد قصد الجنس ، و فى الجنس معنى الكثرة ، و لأن فى الجمع استغراقا للافراد ، و فى الاستغراق معنى الجنسية .

٤- الاختلاف بابدال كلمة يغلب أن تكون احداهما مرادفة للأخرى ، و انما تتفاوتان بمجديان اللسان لدى قبيلة دون أخرى لقوله تعالى : (كالعهن المنفوش) فقد قرىء (كالصوف المنفوش) حدث المازنى قال : سمعت أبا سرار الغنوى يقرأ : (فحاسوا خلال الديار) ، فقلت : انما هو جاسوا ، فقال : (جاسوا و حاسوا واحد) قال و سمعته يقرأ : (و اذ قتلتم نسمة فادارأتم فيها) فقلت له : (انما هو نفس) قال : (النسمة و النفس واحد) :

(ان لك فى النهار سبحا طويلا ، و سبخا ، معناهما واحد أى فراغا . أو يكون بين الكلمتين تقارب فى المخارج ، كقوله : (طلح منضود) فقد قرئ (طلع) و يلاحظ أن مخرج العين و الحاء واحد .

٥- الاختلاف بالتقديم و التأخير فيما يعرف وجه تقديمه أو تأخيره ، فى لسان العرب العام أو فى نسق التعبير الخاص ، كقوله تعالى فى شأن المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم و أموالهم ، بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله (فيقتلون و يقتلون) فقد قرىء (فيقتلون و يقتلون) ففى الحرف الأول يشرع المؤمنون الى قتل الأعداء

و فى الحرف الثانى كأنما يتلهفون الى ساحة المعركة ، تلهفا لعل الله يتخذهم شهداء ، هنا اختلفت ، اذا ، صياغة التعبير بالتقديم و التأخير، فان مؤدى الحرفين ما انفك واحدا لم يناله شيء من التغيير.

٦- الاختلاف بشيء يسير من الزيادة و النقصان ، جريا على عادة العرب فى حذف أدوات الجر و العطف ، تارة ، و اثباتها تارة أخرى ، و لذلك لم تحفظ هذه الضروب من الزيادة و النقص ، الا فى أحرف قليلة محدودة ، مع التنبيه على شذوذ كل ما لم يحفظه الأئمة الثقات منها : فمن الزيادة قوله تعالى فى سورة التوبة : (و أعدهم جنات تجرى تحتها الأنهار) قرىء : (من تحتها الأنهار) و من النقصان قوله تعالى : (قالوا اخذ الله ولدا) من سورة البقرة بغير واو .

٧- اختلاف اللهجات فى الفتح و الامالة و الترقيق و التفخيم و الهمزة و التسهيل و كسر حروف المضارعة و قلب بعض الحروف و اشباع ميم الذكور و اشمام بعض الحركات ، من ذلك قوله تعالى : (و هل أتاك حديث موسى) و قوله : (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) قرىء بامالة (أتى) و (موسى) (ويلى) نحو الكسر. و قوله تعالى (خبيرا بصيرا) بترقيق الراءين . و (الصلاة) و (الطلاق) بتفخيم اللامين .

و قوله تعالى : (قد أفلح) بترك الهمزة ، و قوله تعالى : (لقوم يعلمون) نحن نعلم (و تسود وجوه) (ألم اعهد) بكسر حرف المضارعة . و قوله تعالى : (و غيض الماء) باشمام ضمة العين مع الكسر .

و هذا الوجه الأخير أهم الأوجه السبعة لأنه يبرز الحكمة الكبرى التى تعدد من انزال القرآن على سبعة أحرف ، ففيه تخفيف و تيسير على هذه الأمة التى تعددت قبائلها ، فاختلفت بذلك لهجاتها ، و تباين أداؤها لبعض الألفاظ .

و قوله صلى الله عليه و آله و سلم :

(أقرأنى جبريل على حرف فراجعته فلم أل أستعيده حتى انتهى الى سبعة أحرف) .

" الديالكتيك " و التطور

الديالكتيك : كلمة مأخوذة من الكلمة اليونانية (ديالیغو) و معناها هنا (المحادثة و المجادلة و الحوار) . و التطور لغة التحول من طور الى طور ، أو من حال الى حال ، قال تعالى : (و قد خلقكم أطوارا) أى خلقكم طورا نطفة ، و طورا علقة ، الى آخره .

و كان الديالكتيك يعنى فى عهد الأولين الوصول الى الحقيقة ، باكتشاف المتناقضات التى يتضمنها استلال الخصم ، و كان بعض الفلاسفة الأولين يعتبرون أن اكتشاف تناقضات الفكر و المصادمة بين الآراء هما خير وسيلة لاكتشاف الحقيقة . و يقول لينين : (ان الديالكتيك بالمعنى الخاص للكلمة هو درس التناقضات فى ماهية الأشياء نفسها) . و يقول أيضا : (التطور نضال المتضادات) و المثال على ذلك قولهم : (ان انتقال الماء بزيادة الحرارة الى بخار أو بنقصانها الى جليد لا يتم بواسطة تناسق الذرات فى المادة ، بل يتم بواسطة تشاد هذه الذرات مع بعضها ، و هذا هو معنى قولهم : (ان كل أشياء الطبيعة و حوادثها تحوى تناقضات ، أى تحوى ذرات سالبة و موجبة ، فيحصل الاصطدام مع بعضها ، فينتج عن هذا الاصطدام مع بعضها التحول) .

و لهذا تعتبر الطريقة الديالكتيكية أن حركة التطور من الأدنى الى الأعلى تجرى بتطور الحوادث تطورا تدريجا متناسقا ، بل بالطريقة اللازمة للأشياء و الحوادث ، فبنضال الاتجاهات المتضادة التى تعمل على أساس هذه التناقضات .

وكل تركيب منها يعطى جسما مختلفا من حيث الكيفية عن جميع الأجسام التى تعطيها التراكيب الأخرى ، فيقولون : لنأخذ الاوكسجين ، فان جمعنا فى جزئية ثلاث ذرات عوضا عن اثنتين كالعادة حصلنا على جسم جديد هو الآزوت الذى يختلف اختلافا بينا برائحته و تأثيراته عن الأوكسجين العادى ، و كذلك بالنسبة لتركيب الأوكسجين مع الكبريت .

الرد على تفاعل المتضادات

ان الأشياء لا تستطيع أن تتصرف فى كل شىء و لا أن تنقل من حالة الى أخرى الا باحداث تغيير فيها أو فى سواها أو بعامل آخر ، فهى ، اذا ، محتاجة الى هذه العوامل و هذه الحالات ، فالنار لن تستطيع أن تحرق الا بوجود مادة قابلة للاحتراق .

و الأحماض لا تستطيع أن تذيب الا عناصر معينة فيها قابلية الذوبان فهى محتاجة الى العناصر التى فيها قابلية الذوبان حتى تستطيع أن تحدث الاذابة ، و العناصر لا تستطيع الاتحاد و التفاعل الا بوجود عناصر فيها قابلية التفاعل و الاتحاد ، فهى محتاجة الى العناصر التى فيها قابلية التفاعل و الاتحاد ، و حتى نحصل على الماء الثقيل لابد من اتحاد ذرتين من الايدروجين الثقيل المسمى بالدويثر يوم مع ذرة من الاوكسجين ، و لا يقال احتاج الى ما هو فيه ، أو احتاج الى زيادة كمية الى ماهو فيه ، بل احتاج الى ما يوجد له هذه الكمية الى ماهو فيه ، بل احتاج الى ما يوجد له هذه الكمية فهو محتاج .

ثم ينتقلون الى كيفية وجود العلاقات

يقول كارل ماركس : ”ان العلاقات الاجتماعية مرتبطه ارتباطاً وثيقا بالقوى المنتجة ، و عندما يحصل الناس على قوى منتجة جديدة يغيرون أسلوبهم فى الانتاج ، و بتغييرهم اسلوب الانتاج اى بتغييرهم طرق

اكتساب معيشتهم يغيرون كل علاقاتهم الاجتماعية ، فطاحونة الهواء تعطيك المجتمع الاقطاعى ، و الطاحونة التجارية تعطيك المجتمع الرأسمالى الصناعى''.

و الحق أن العلاقات بين الناس لا شأن لها مطلقا بأدوات الانتاج ، و بالتالى لا شأن لها بما يسمى بالقوى المنتجة ، فهى تتحسن من حال الى حال ، تبعا لتقدم العلوم و المعارف.

أما العلاقات فتتغير من حال الى حال ، تبعا للافكار ، أى تبعا لوجهة النظر فى الحياة.

و ينتهون الى الغاية التى ينشدونها :

ان العالم بطبيعته مادى ، و ان حوادث العالم المتعددة هى مظاهر مختلفة للمادة المتحركة ، و العلاقات المتبادلة بين الحوادث و تكييف بعضها بعضاً ، كما تقرر الطريقة الديالكتيكية ، هى قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة ، و العالم يتطور تبعا لقوانين حركة المادة ، و لا يحتاج الى أى عقل كلى.

يقول انجلس : ''ان الفهم المادى يعنى ، بكل بساطة ، فهم الطبيعة كما هى ، دون أية اضافة غريبة ، و حين قرأ لينين المفهوم المادى عند فيلسوف العهد القديم هيراقليط الذى يقول ان : ''العالم واحد لم يخلقه أى اله أو انسان ، و قد كان و لا يزال و سيكون شعلة حيه الى الابد تشتغل و تنطفئ ، تبعاً لقوانين معينة'' ، حين قرأ لينين هذا ، قال : ''يا له من شرح رائع لمبادئ المادية الديالكتيكية''.

و لما أنكروا وجود خالق مدبر ، لهذه الحياة على اختلاف مظاهرها ، بدأوا بالتكهن القائل : ''فمن المحتمل أن أولى الكائنات الحية التى عاشت على الأرض كانت عبارة من جزئيات بسيطة من مادة البروتين ، و هى المادة الأساسية فى تكوين أجسام الكائنات الحية كافة''.

ثم أخذوا يتساءلون : ''أليس من الممكن أن تكون جرثومة الحياة الاولى قد وصلت الى عالمنا الارضى من بعض الاجرام الفلكية البعيدة ؟'' و لكن اللورد كالفى العالم الانكليزى المشهور قال : ''يحتمل كثيرا أن تكون الحيات قد وصلت الى عالمنا الأرضى من عوالم أخرى'' ، و مثل هذا القول ، من مثل هذا العالم ، يدع أى لبس عند أى مفكر بأن كل ما وضعوه و ركزوا عليه سيرهم فى حياتهم الدنيا من عقائد و آراء و مفاهيم ، كان احتمالات و تكهنات فقط .

و اليكم بعض نماذج عن أشهر العلماء : يقول سليتر و داروين و جيرالد هيرد ما معناه :

''ان الحياة على الكرة الارضية لم تظهر ، أول ما ظهرت ، على الارض ، و انما تكونت فى البحر و انتشرت منه الى الارض .

و لما ارتقت اشكال الحياة فى البحر و تمكنت من التسلل الى الارض ، لم تفعل هذا بطريقة مباشرة ، بل انتقلت من البحار الى أنهار المياه العذبة و منها تسللت الى الارض'' .

و فى رأى سيلتر : أن هذه العملية تمت منذ حوالى (٢٠٠) مليون سنة ، و يقول سيلتر ان بعض الأشكال الحية أنشأت لنفسها فى ذلك الوقت (رئة) لتتمكن بها من مقاومة القحط والجفاف و مع ذلك عادت هذه الأشكال (رئتها) الى الماء من جديد بينما ظلت عملية التطور تسير فى مجراها الطبيعى . و كونت الأسماك زعانف لها و تطورت هذه الزعانف مع الزمن الى سيقان ، فظهرت بذلك الحيوانات البرمائية ، و كان غرض الطبيعة من تكوين تلك السيقان لتلك الأسماك تمكينها من الحصول على الغذاء من البرك و المستنقعات ، فلم يكن الغرض فى بادىء الأمر تمكينها من المشى .

الا أن هذه الحيوانات البرمائية أصبحت من الناحية العلمية أصلا فى سلسلة التطورات التى انتهت بظهور الانسان .

و يقول : ان على الأرض أكثر من مليون نوع من الحيوانات ، و لكن الانسان هو أرقى الأنواع و أذكاها ، و قد قطع صلته بأسلافه منذ حوالى مائة مليون سنة، و لم يكن له مخه الحالى ، منذ حوالى ربع مليون سنة ، فلو حدث أن جاء مخلوق من الكوكب الاخرى الى الأرض خلال الـ . . ٥ مليون سنة الماضية ما كان ليجد عليها أية حياة ذكية . و لمثل هذا ذهب جيرالدهيرد مصور الحياة البشرية، فى احدى مؤلفاته حيث رأى أن الحياة تبدأ فى البحر.

نظرية التطور والارتقاء

و هى التى تبناها داروين ، يقول : ''اننا من سلالة القرود أو على الأقل من سلالة حيوان شبيه بالقرد ، و منذ مليون سنة بدأت احدى سلالات القردة تتطورا بطيئا وئيدا، انتهى بانجاب (الانسان الشبيه بالقرد) الذى ظهر منذ نحو (مائتى ألف سنة) و امتاز عن أجداده بقدرته على التفكير و الابتكار ، و على النطق و الكلام ، و على المشى منتصبا على قدميه ، و بناء القرود العليا يشبه بناء الانسان ، فى كثير من الامور التشريحية .

هى استنتاجات استخلصوها من خلال مشاهدتهم للحفريات و التجارب التى أجروها .

و هذا يعود لعدم تمييزهم بين الطريقة العلمية و الطريقة العقلية . فكان الخطأ أنهم بنوا عقائدهم على أساس من الطريقة العلمية و حدها .

الوازع الدينى أو الايمان بالله

كثيرون على وجه الارض ، و لا سيما فى العالم الغربى ، يعتقدون بالله و يؤمنون به ولكن اعتقادهم و ايمانهم مبنى على أن الله فكرة لا حقيقة ، و هؤلاء يرون أن الايمان بوجود ''اله'' ايمان بوجود فكرة الألوهية ، و هى فكرة يقولون عنها انها جميلة ، لان الانسان يتخيلها

و يعتقد بها و يخضع لسلطانها ، وما دام الأمر كذلك ، فيبتعد عن الشر و يقترب من الخير بدافع هذه الفكرة . فهى رادع داخلى يفعل أكثر مما يفعله الدافع الخارجى ، و لذلك يرون انه يجب الايمان بالله ، و يجب تشجيع الايمان به حتى يظل الناس خيرين مدفوعين الى الخير بدافع داخلى يسمونه ''الوازع الدينى''.

ما أسهل ما يجر هؤلاء الى الالحاد ، و ما أقرب ما يرتدون عن ايمانهم ، هذا بمجرد أن يندفع العقل بالتفكير للمس هذه الفكرة ، فاذا لم يلمسها و لم يدرك لهذا الوجود أثرا جحد الله و كفر به ، و فوق هذا فان الايمان بأن الله فكرة لا حقيقة يجعل الخير و الشر أيضا فكرة لا حقيقة . و عندئذ يقوم الانسان بالأعمال بقدر ما يتخيل فيها من فكرة الخير ، و يبتعد عنها بقدر ما يتخيل فيها من فكرة الشر. و الذى أدى بهؤلاء الى هذا النوع من الايمان ابتعادهم عن العقل فى الوصول الى الايمان بالله. و لم يهتدوا لحل العقدة الكبرى الناشئة من الأسئلة الطبيعية عن الكون و الانسان و الحياة ، و عما قبل الحياة الدنيا و عما بعدها و عن علاقتها بما قبلها و ما بعدها ، حلا عقليا ، و انما لقنوا الحل الذى يريده الملقن فسلموا بهذا الحل و ظلوا مؤمنين دون أن يدركوا بالحس وجود الذى آمنوا به . و كثير منهم من كان يحاول أن يستعمل عقله ، فيجاب أن الدين فوق العقل ، و عندئذ يجبر على السكوت ، و الصواب أن الله حقيقة لا فكرة و أن وجوده ملموس محسوس بوجود مخلوقاته ، فهى آيات تدل على حقيقة وجوده ''و فى الأرض آيات للموقنين. و فى أنفسكم أفلا تبصرون و فى السماء رزقكم و ما توعدون ، فهو رب السماء و الأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون''.

الفلاسفة و المتكلمون

الفلسفة ، كلمة مأخوذة من الكلمة اليونانية (فيلوزوفى) ، و معناها اللغوى : حب الحكمة ، و قد اصطلح على مفهومها بأنه ''البحث فى

ما وراء الكون و الانسان و الحياة".

و الفلاسفة يعتمدون على البراهين وحدها ، و يؤلفون البرهان تأليفا منطقيا ، من مقدمة صغرى ، و كبرى ، و نتيجة ، و يستعملون ألفاظا و اصطلاحات للأشياء : من جوهر و عرض و نحوهما ، و يثيرون المشاكل العقلية ، و يبنون عليها بناء منطقيا لا بناء حسيا أو واقعيا. أما منهج المتكلمين فى البحث فيغاير ذلك ، لأن المتكلمين آمنوا بالله و رسوله ، و ما جاء به رسوله ، ثم أرادوا أن يبرهنوا على ذلك بالأدلة العقلية المنطقية. و أخذوا يتوسعون فى ذلك ، ففتحت أمامهم موضوعات جديدة ، ساروا فى بحثها و بحث ما يتفرع منها الى نهاية منطقية ، فهم لم يبحثوا فى الآيات بمنهج الفلاسفة ، و انما آمنوا بها و أخذوا يقيمون البراهين على ما يفهمونه هم منها ، هذه ناحية من نواحى البحث ، و أما الناحية الأخرى و هى النظرة الى الآيات المتشابهة. فان المتكلمين لم يقنعوا بالايمان بالمتشابهات ، جملة من غير تفصيل ، فجمعوا الآيات التى يظهر منها جسمية الله تعالى ، و سلطوا عليها عقولهم و جرؤوا على ما لم يجرؤ عليه غيرهم ، فأداهم النظر فى كل مسألة الى رأى بعينه ، فاذا وصلوا الى هذا الرأى ، عمدوا الى الآيات التى يظهر أنها تخالف رأيهم فأولوها. و لذا كان التأويل أول مظهر من مظاهر المتكلمين ، و حين أدى بهم البحث الى نفى الجهة عن الله و أن أعين الناس لا يمكن أن تراه ، أولوا الأخبار الواردة فى رؤية الناس لله ، و هكذا كان التأويل عنصرا من عناصر المتكلمين ، و أكبر مميز لهم عن السلف. فهذا المنهج بالذات ، مع اعطاء العقل حرية البحث فى كل شئ ، يؤدى حتما الى جعله الأساس فى القرآن ، لا جعل القرآن أساسا له ، ثم استمر الجدل بين المسلمين منذ أوائل القرن الثانى للهجرة الى يومنا هذا. و عوضا عن أن تحمل الدعوة الاسلامية بحرارتها ، و قوتها السليمة الصريحة الصحيحة ، و هيبتها الالهية التى عجز أمامها العباقرة ، عوضا عن أن

تحمل كما أمر الله أن تحمل بقوله تعالى : ''ادع الى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتي هي احسن'' عوضا عن هذا السمو الذى ليس بعده سمو ، كان ما رأينا .

''و من أحسن قولا ممن دعا الى الله و عمل صالحا و قال انني من المسلمين'' و بعد ذلك ، ''فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر'' ، و يلاحظ ، أنهم بدل أن ينشروا الاسلام ، أخذوا يجادلون و يجادلون ، حتى غلب عليهم حب المجادلة ليثبت كل واحد منهم أنه قوى الجدل ، ليس الا .

علم المنطق

يستند علم المنطق الى اقتران القضايا ببعضها . و اقتران القضايا يجرى فيه تركيب المعقولات على المعقولات ، و استنتاج معقولات منها ، و يجرى فيه ترتيب المحسوس على المحسوسات و استنتاج محسوسات منها . أما ترتيب المعقولات على المعقولات فانه يؤدى الى الانزلاق ، يقال منطقيا : القرآن الكريم كلام الله ، و هو مركب من حروف مرتبة متعاقبة فى الوجود ، و كل كلام مركب من حروف متعاقبة فى الوجود حادث ، فالنتيجة : القرآن حادث مخلوق . الترتيب للقضايا أوصل الى نتيجة ليست مما يقع تحت الحس ، فلا سبيل للعقل الى بحثها أو الحكم عليها ، و لكن يمكن بواسطة نفس المنطق أن يصل الى نتيجة تناقض هذه النتجة ، فيقال : القرآن كلام الله ، و هو صفة له ، و كل ما هو صفة لله قديم ، فالنتيجة : القرآن قديم غير مخلوق ، و بذلك يبرز التناقض فى المنطق فى قضية واحدة .

اسبانيا سكانها ليسوا مسلمين ، و كل بلد سكانه ليسوا مسلمين لا يعد بلدا اسلاميا و الخطأ آت من أن القضية الثانية خطأ . معاوية بن أبي سفيان رأى الرسول و اجتمع به ، و كل من رأى الرسول و اجتمع به صحابي ، فالنتيجة : معاوية بن أبي سفيان صحابي ، وهذه النتيجة خطأ ،

فليس كل من رأى الرسول و احتمع به صحابيا ، و الا كان أبو لهب صحابيا . مثل آخر : أمريكا بلد ترتفع فيه الناحية الاقتصادية ، و كل بلد ترتفع فيه الناحية الاقتصادية بلد ناهض ، فالنتيجة : امريكا بلد ناهض . هذه النتيجة صحيحة بالنسبة لأمريكا ، مع أن احدى القضيتين منها غير صحيحة ، فليس كل بلد ترتفع فيه الناحية الاقتصادية بلدا ناهضا ، و الا ترتب على ذلك كله أن تكون بعض البلاد الشرقية ، بلادا ناهضة لأن الناحية الاقتصادية فيها مرتفعة . لا ، بل البلد الناهض هو الذى ترتفع فيه الناحية الفكرية .

وجه خطأ منهج المتكلمين ظاهر فى أربعة وجوه :

(١) اعتمادهم فى اقامة البرهان على الأساس المنطقى ، لا على الأساس الحسى . و هذا خطأ من وجهين .

(أ) جعلوا المسلم فى حاجة الى أن يتعلم المنطق ، حتى يستطيع اقامة البرهان على وجود الله ، و معنى ذلك أن من لا يعرف المنطق يعجز عن البرهنة على صحة عقيدته .

(ب) أما الأساس المنطقى فظنه الخطأ .

(٢) خروجهم على الواقع المحسوس ، و تجاوزهم الى غير المحسوس فقد بحثوا فى ماوراء الطبيعة فى ذات الله و صفاته ، فى ما لايصل اليه الحس ، و أفرطوا فى قياس الغائب على الشاهد ، أعنى فى قياس الله على الانسان ، فأوجبوا على الله العدل كما يتصوره الانسان .

(٣) اعطاؤهم العقل حرية البحث فى كل شئ ، فى ما يحس و ما يحس ، ثم جعله أساس البحث فى الايمان كله ، فترتب على ذلك كله أن جعلوا العقل أساسا للقرآن ، و لم يجعلوا القرآن أساسا للعقل .

(٤) جعلوا خصومة الفلاسفة أساسا لبحثهم ، فالمعتزلة أخذوا من الفلاسفة ، ثم ردوا عليهم ، و أهل السنة و الجبرية ردوا على المعتزلة ،

و أخذوا من الفلاسفة و ردوا عليهم ، فى حين أن موضوع البحث هو الاسلام ، و ليست الخصومة مع الفلاسفة و لا مع غيرهم .

كان عليهم أن يقفوا عند حد القرآن و الحديث ، و عند حد بحثه ، بغض النظر عن أى انسان ، و لكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل حولوا تبليغ الاسلام ، و شرح عقائده ، الى مناظرات و مجادلات ، حتى انتهى بهم المطاف الى أن يتصفوا بصفة جدلية ، و مهنة كلامية .

الفرق بين المتكلمين والفلاسفة المسلمين

١- أقر المتكلمون بصحة قواعد الايمان ، و أمنوا بها ، ثم اتخذوا أدلتهم العقلية للبرهنة عليها ، فهم يعتمدون البحث العقلى بالاسلوب المنطقى لاثبات عقائدهم .

٢- ان أبحاث المتكلمين محصورة فى ما يتعلق بالدفاع عن عقيدتهم ، و دحض حجج خصومهم سواء كانوا مسلمين ، يخالفونهم فى الفهم ، من معتزلة و مرجئة و خوارج و غيرهم أم كانوا غير مسلمين كالنصارى و اليهود و غيرهم ، و ان كان البارز فى أبحاثهم الرد على المسلمين من متكلمين و فلاسفة .

٣- أبحاث المتكلمين أبحاث اسلامية ، و تعتبر على اختلافها و و تناقضها آراء اسلامية ، و يعتبر كل مسلم اعتنق رأيا منها معتنقا رأيا اسلاميا .

و أما منهج الفلاسفة المسلمين فانه يتلخص فيما يلى :

١- ان الفلاسفة يبحثون المسائل بحثا مجردا ، و منهاج بحثهم هو النظر فى المسائل ، كما يدل عليها البرهان ، و نظرتهم فى الالهيات نظرة فى الوجود المطلق ، و ما يقتضيه لذاته .

و هم يبدأون النظر منتظرين ما يؤدى اليه البرهان ، سائرين خطوة حتى يصلوا الى النتيجة ، كائنة ما كانت ، يعتقدون بها ، و بحثهم

اذا ، بحث فلسفى محض لا علاقة له بالاسلام. كثيرا ما يسلم الفلاسفة المسلمون فى بحثهم باشياء سمعية لا يمكن اقامة البرهان العقلى على صحتها أو بطلانها ، كالبعث و النشور و المعاد الجسمانى ، وكثيرا ما كانوا يبدون بعض الآراء فى الفلسفة اليونانية متأثرين بعقيدتهم الاسلامية.

و كثيرا ما كانوا يحاولون التوفيق بين بعض قضايا الفلسفة و القضايا الاسلامية ، و لكن ليس هناك تأثر فكرى يجعل الاسلام أساسا ، كما هى الحال عند المتكلمين ، انه تاثر يشبه الى حد بعيد تأثر الفلاسفة المسيحيين بالمسيحية ، و الفلاسفة اليهود باليهودية و هو تأثر ، بالديانتين ، ضعيف ، أما تأثر الفلاسفة المسلمين الحقيقى فقد كان تأثرا بالفلسفة اليونانية. لقد كتبوا أفكارهم الفلسفية بعد نضجها فى الفلسفة اليونانية.

٢- لم يكن هم الفلاسفة المسلمين الدفاع عن الاسلام ، لأنهم كانوا يقفون عند تقرير الحقائق ثم يبرهنون عليها ، ولا يدخلون ، فى حكاية الأقوال المخالفة و الرد عليها ، دفاعا عن الاسلام ، و ان كان البحث العقلى هو الأصل ، و هو الموضوع و لا يوجد غيره فى بحوثهم.

٣- ان أبحاث الفلاسفة المسلمين أبحاث غير اسلامية ، بل هم أبحاث فلسفية محضة ، و لا علاقة للاسلام بها.

هذا هو الفرق بين منهج المتكلمين و منهج الفلاسفة المسلمين ، و من الظلم و الدس على الاسلام أن تسمى الفلسفة التى اشتغل فيها أمثال الكندى و الفارابى و ابن سينا و غير هم من الفلاسفة المسلمين فلسفة اسلامية ، لأنها لا تمت للاسلام بصلة بل هى تتناقض مع الاسلام تناقضا تاما من حيث الاساس ، أو من حيث التفاصيل الكثيرة ، أما من حيث الاساس فان هذه الفلسفة تبحث فى ماوراء الكون أى فى الوجود المطلق ، بخلاف الاسلام الذى يبحث فى الكون و فى

المحسوسات ، و يمنع البحث فى ذات الله او ماوراء الكون ، يأمر بالتسليم المطلق .

و أما من حيث التفاصيل فان فى هذه الفلسفة أبحاثا كثيرة ، يعتبر ها الاسلام كفرا كالقول بقدم العالم و أنه أزلى ، و أبحاثا تقول ان نعيم الجنة روحانى لا مادى ، و أبحاثا تقول : ان الله يجهل الجزئيات ، و غير ذلك ، مما هو كفر صراح فى نظر الاسلام فكيف يقال عن هذه الفلسفة ، انها فلسفة اسلامية مع هذه التناقض البين. أجل لا توجد فى الاسلام فلسفة مطلقا ، لأن حصره للبحث العقلى فى المحسوسات ، و منعه العقل من أن يبحث فى ماوراء الكون يجعلان أبحاثه كافة بعيدة عن الفلسفة ، سائرة فى غير طريقها و ليس فى الاسلام سوى بحث فى القرآن الكريم و السنة النبوية ، فهما ، وحدهما ، أصل الاسلام ، عقيدة و أحكاما و أمرا و نهيا و اختبارا .

نشأة القضاء و القدر

أصل البحث فى القضاء و القدر : الثواب و العقاب ، أو الجبر و الاختيار ، أو حرية الارادة .

(واصل بن عطاء امام المعتزلة ، و من أشد الجبرية جهم بن صفوان) .

كان بعضهم يقول : ان القضاء و القدر سر من أسرار الله التى لايعرفها أحد. هل الأفعال بخلق العبد و ارادته أم بخلق الله و ارادته ؟ أو هل ما يحدثه الانسان فى الأشياء من خاصيات هى من فعل العبد و ارادته ، أم هى من الله تعالى ؟ و فى الحقيقه لم يكن القضاء و القدر عقيدة عند المسلمين ، و لايجوز أن يقال انهما العقيدة السادسة ، لأنه حين آمن المسلمون بالقرآن الكريم و نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، لم يخطر على بالهم طول قرن ، مع فتوحات عديدة ، شئ عن أفعال

العبد : أهى من الله أم خلقها العبد بنفسه ، بل كانت جميع الأمور واضحة للمسلمين ، مع أن القرآن الكريم أشار الى مثل هذه الأمور ، و لكن المسلمين فيما بعد عقدوها ، و أحبوا أن يمزجوا بين الاسلام و الفلسفات الأجنبية . القضاء و القدر ليسا عقيدة سادسة ، بل مفهومان واضحان فى القرآن الكريم . قال الله تعالى : ''و ان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، و ان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا'' ''ما أصابك من حسنة فمن الله ، و ما أصابك من سيئة فمن نفسك'' و العقيدة هى كما نصها القرآن الكريم، و لم يزد عليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

معنى القدر اللغوى و الشرعى

لقد وردت كلمة القدر فى عدة معان ، يقال فى اللغة قدر الأمر أى دبره ، و الشيء قاسه به و جعله على مقداره ، و قدر الشيء قدرة أى هيأه . و قدر الأمر نظر اليه و دبره ، قدر قدرا الله أى عظمه ، و قدر الله عليه الأمر أى قضى و حكم .

و وردت كلمة القدر فى القرآن الكريم بعدة معان ، قال تعالى : ''و كان أمر الله قدرا مقدورا'' ، أى أمرا أو قضاء محكما . و قال تعالى : ''فالتقى الماء على أمر قد قدر'' أى على حدث قد كتبه الله فى اللوح المحفوظ ، و قال : ''و قدر فيها أقواتها'' أى جعل فيها خاصية انبات الأقوات ، و قال تعالى : ''فكر و قدر'' أى فكر ماذا يقول و هيأه، و قال ''الذى خلق فسوى ، و الذى قدر فهدى'' أى خلق كل شيء فسواه تسوية و قدر لكل مخلوق ما يصلحه فهداه اليه و عرفه وجه الانتفاع به ، و قال تعالى : ''و قدرنا فيها السير'' أى جعلنا فيها سهولة و قال : ''قد جعل الله لكل شيء قدرا'' أى توقتا ، ''ان كل شيء خلقناه بقدر'' أى جعلنا تقدير الموت بينكم على اختلاف و تفاوت فى أعماركم ''وما ننزله الا بقدر معلوم'' أى بمقدار معلوم ''ثم جئت على قدر يا موسى'' أى أتيت

على وقت معين . و من قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ''اذا ذكر القدر فأمسكوا'' أى اذا ذكر علم الله و تقديره للأشياء ، فلا تخوضوا فى ذلك. و من هنا يتبين أن كلمة ''قدر'' من الألفاظ المشتركة التى لها عدة معان .

معنى القضاء اللغوى و الشرعى

يقال ، فى اللغة : قضى يقضى قضاء الشئ وضعه باحكام و قدره ، و قضى بين الخصمين حكم و فصل ، و قد وردت كلمة القضاء فى آيات القرآن فى عدة آيات ، قال الله تعالى : (فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) أى اذا أبرم امرا فانما يدخل تحت الوجود من غير امتناع و لا توقف ، و قال تعالى : (هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا) ، أى جعل لهذا المخلوق الذى خلقه من طين أجلا بين ايجاده و موته ، و قال تعالى : (و قضى ربك ألا تعبدوا الا اياه) أى أمرا مقطوعا به ألا تعبدوا سواه ، و قال تعالى : (و ما كان لمؤمن و لا مؤمنة اذا قضى الله و رسوله امرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أى اذا حكم بحكم، و قال تعالى : (فقضاهن سبع سموات أى فصنع السماء باحكام جاء كونها سبع سموات. و قال تعالى : ليقضى الله أمرا كان مفعولا) ، أى ليبرم أمرا كان واجبا أن يفعل ، و قال تعالى : (و قضى الأمر) أى تم ، و قال تعالى : (ليقضى أجل مسمى) أى ليبرم الأجل الذى سماه و ضربه لبعث الموتى . و قال تعالى : (قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى و بينكم) أى لانتهى الأمر ، و أهلكتكم عاجلا ، و قال تعالى : (كان على ربك حتما مقضيا) أى محتوما ، أى كان ورودهم واجبا على الله و أوجبهم على نفسه و قضى به ، و على هذا فان كلمة (قضاء) من الألفاظ المشتركة التى لها عدة معان ، و لكن على تعدد هذه المعانى لم يرد منها أن القضاء هو حكم الله فى الكليات فقط ، كما لم يرد أن القدر هو فى الجزئيات. و أن هذه الآيات و الأحاديث تتحدث عن

صفات الله و أفعاله ، و القضاء و القدر يبحث عن فعل العبد ، و البحث فى هذه الآيات شرعى ، و معانيها لغوية ، و بحث القضاء و القدر عند المتكلمين عقلى ، و معنى اصطلاحى هم وضعوه.

القضاء و القدر

موضوع البحث الذى يجب أن تبنى مسألة القضاء و القدر على أساسه ، هو موضوع الثواب و العقاب. أى هل العبد ملزم بالقيام بالفعل خيرا أو شرا ، أو مخير فيه ؟

و المدقق بأفعال العباد يرى أن الانسان يعيش فى دائرتين ، يسيطر على الأولى ، و هى التى تقع فى نطاق تصرفاته ، و فى نطاقها تحصل أفعاله التى يقوم بها بمحض اختياره.

و الأخرى تسيطر عليه ، و هى الدائرة التى يقع فى نطاقها و تقع فى هذه الدائرة الأفعال التى لا دخل له بها . سواء وقعت منه أو عليه ، و الأفعال التى تقع فى الدائرة التى تسيطر عليه قسمان :

قسم يقتضيه نظام الوجود مباشرة ، فهى تخضعه لها ، و لذلك يسير بحسبها سيرا جبريا كعجزه مثلا عن الطيران بجسمه فى الهواء ، و عن السير على الماء . . و قسم لا يقتضيه نظام الوجود مباشرة ، و ان كان كل شئ لا يخرج عن نظام الوجود ، فالأفعال التى ليست فى مقدوره و التى لا قبل له بدفعها ، و لا يقتضيها نظام الوجود ، هى الأفعال التى تحصل من الانسان أو عليه و لا يملك دفعها ، كما لو زلت قدم شخص و سقط فى واد ، و كما لو اصطدمت سيارة بانسان فقتلته ، فهذه الأفعال التى حصلت ، ليس فى مقدوره دفعها ، فهى داخلة فى الدائرة التى تسيطر عليه ، و هى تسمى قضاء ، و لذلك لا يحاسب الانسان على وقوعها مهما كان فيها من نفع أو ضرر ، فهو لا يثاب و لا يعاقب عليها. و يقال حينئذ ان الفعل وقع قضاء ، و على الانسان أن يؤمن بأن القضاء

من الله سبحانه و تعالى.

أما الأفعال التى تقع فى الدائرة التى يسيطر عليها الانسان ، فهى الدائرة التى يسير فيها مختارا ضمن النظام الذى يختاره سواء كان النظام شريعة الله أو غيرها. و يمتنع عن ذلك وقت يشاء ، و لذلك يسأل عن الأفعال التى يقوم بها ضمن الدائرة ، فيثاب على الفعل ان كان يستحق الثواب ، و يعاقب عليه ان كان يستحق العقاب ، و هذه الافعال لا دخل للقضاء بها ، لأن الانسان هو الذى قام بها بارادته و اختياره. و أما القدر فيعنى أن الأفعال التى تحصل كانت فى الدائرة التى يسيطر عليها الانسان أو فى الدائرة التى تسيطر عليه ، تقع من أشياء على اشياء من مادة الكون و الانسان و الحياة ، فيحدث هذا الفعل أثرا أى يترتب على هذا الفعل وجود أمر ما ، فهل هذا الذى يحدثه الانسان فى الأشياء من خاصيات ، قد خلقه الانسان فيها ؟ أو خلقه الله سبحانه و تعالى فى هذه الأشياء ؟ كما الأشياء نفسها. و المدقق يجد أن هذه الأمور التى يحدثها فى الأشياء هى من خواص الأشياء ، لا من فعل الانسان، بدليل أن الانسان لا يستطيع أن يوجدها إلا فى الأشياء التى تكون خاصة من خواصها ، أما الأشياء التى ليست من خواصها فلا يمكن للانسان أن يوجد فيها ما يريده ، و لهذا لم تكن هذه الأمور من أفعال الانسان ، و انما هى خواص الأشياء ، فالله تعالى خلق الأشياء ، و قدر فيها خواصها على وجه لا يتأتى منها غير ما قدرها فيها ، كتقدير النواة بأن ينبت منها النخل ، دون البرتقال و قد خلق الله للأشياء خواص معينة ، فخلق فى النار خاصية الاحراق ، و فى الخشبة خاصية الاحتراق ، و جعلها لازمة ، حسب نظام الوجود ، لا تختلف .

و حين يظهر أنها تخلفت يكون الله تعالى قد سلبها تلك الخاصية ، و كان ذلك أمرا خارقا للعادة ، و هو يحصل للأنبياء و يكون معجزة

لهم ، فهذه الخاصيات المعينة التى أوجدها الله سبحانه فى الأشياء ، و فى الغرائز ، و فى الحاجات العضوية التى فى الانسان ، هى التى تسمى القدر ، و على الانسان أن يؤمن بأن الذى قدر فى الأشياء خواصها هو الله .

و من هنا كان القضاء و القدر أفعال العبد التى تقع فى الدائرة التى تسيطر عليه ، و الخاصيات التى يحدثها فى الأشياء .

و لذلك كان الانسان مختارا فى الاقدام على الفعل أو الاحجام عنه ، بما وهبه الله تعالى من العقل المميز ، و جعله مناط التكليف الشرعى .

و لهذا جعل له الثواب على فعل الخير لأنه اختار القيام بأوامر الله و جعل له العقاب على فعل الشر لأنه اختار مخالفة أوامر الله ، و على ذلك كان الانسان مسؤولا عن سعيه وكسبه ، و من قوله تعالى : (و أن ليس للانسان الا ما سعى ، و ان سعيه سوف يرى ، ثم يجزأ الجزاء الأوفى) و قوله تعالى : (كل امرئ بما كسب رهين) .

انتهاء الأجل هو السبب الوحيد للموت

و ذلك أن الشئ حتى يمكن أن يكون سببا لابد أن ينتج المسبب حتما ، و ان المسبب لا يمكن أن ينتج الا عن سببه وحده . و هذا خلاف الحالة ، فانها طرف خاص يحصل فيها الشئ و لكنه قد يتخلف و لا يحصل ، فالحياة مثلا سبب الحركة فى الحيوان فاذا تمت الحياة فقد تمت الحركة ، و اذا تلاشت الحياة فيه تلاشت الحركة ، و الطاقة سبب لتحرك (الموتور) ، فاذا كملت الطاقة تحرك الموتور و اذا لم تكمل فلا حركة ، و هذا بخلاف المطر بالنسبة لانبات الزرع ، فان حالة من الحالات ينبت بها الزرع لاسببا ، و ذلك أن المطر ينبت الزرع ، و لكن قد ينزل المطر و لا ينبت الزرع ، و قد ينبت الزرع من رطوبة الأرض وحدها ، كالزرع الصيفى فينبت بدون نزول المطر .

و كذلك الطاعون و الرصاص ، فقد يحصل شئ يؤدى الى الموت جزما ، ثم لا يموت الشخص و قد يحصل موته فجأة ، دون أن يظهر أى سبب له . فكأن الارواء و الحرارة و الحياة صفة من صفات الشئ الطبيعية ، مع كونها خاصية من خواصه ، فلا يكون وجود الخاصية فى الشئ سبب العمل الذى هو أثر لها . و لا يكون حينئذ انعدام الخاصية مسميا لانعدام العمل الذى هو اثر لها . و لذلك ليس وجود خاصية الحياة فى القلب كافيا لايجاد الحياة فلا يصلح أن يكون سببا للحياة . و على ذلك لا يقال ان ذهاب الشئ سبب ذهاب خاصياته . بل الذى يكون سببا لذهاب خاصية الشئ هو أمر خارج عن الشئ نفسه فتذهب خاصية و يبقى الشئ ذاته فوق خاصيته ، أو يذهب الشئ نفسه فيذهب معه خاصيته فيكون الشئ الذى أذهب الخاصية أو أذهب الشئ و أذهب معه خاصيته ، سبب ذهاب الخاصية ، أو أذهب الشىء و اذهب معه خاصيته و ليس الشئ نفسه سببا لذهاب خاصيته ، و عليه فانه من هذه الجهة أيضا ، أى من جهة كون الحياة خاصيته من خواص وجود الرأس على الجسم ، و خاصية من خواص القلب . لا يقال : ان ازالة الرأس عن الرقبة سبب الموت ، و وقف القلب سبب الموت ، بل مظنة السبب هو الذى أزال الخاصية من الرقبة بازالتها ، و من القلب بوقفه ، لا قطع الرقبة و وقف القلب ، لأنه يستحيل أن يحصل أى اتلاف للعضو الا بمؤثر خارجى ، و لأن الحياة خاصية من خواصة ، فان العضو و ذهابه لا يكون من نفس العضو ، و انما بمؤثر خارجى ازالها أى الخاصية ، أو أزاله و أزالها معه ، و لذلك لا يكون سبب الموت المؤثر الخارجى لأنه ثبت عقلا و واقعا أنه قد يحصل هذا المؤثر الخارجى ، و السبب لا بد أن ينتج المسبب حتما ، فلم يبق الا أن سبب الموت الحقيقى الذى ينتج المسبب حتما ، هو الموت و هو غير هذه الأشياء .

هذه الأشياء التى أدت الى الموت ليست أسبابه ، اذ لو كانت أسبابا لما تخلفت أبدا ، فمجرد تخلفها يدل قطعا على أنها ليست أسبابا ، بل حالات. و سبب الموت الحقيقى الذى ينتج المسبب هو غيرها ، و لم يستطع العقل أن يهتدى اليه لأنه لا يقع تحت الحس ، و العلم به ناشئ عن اخبار الله سبحانه و تعالى ، و ورد ذلك بآيات متعددة. بأنه الأجل ، و أن الله هو الذى يميت ، و أن الأجل اذا جاء ، جاء فى حينه المحتوم فلا يقدم و لا يؤخر ، و لا يستطيع أى انسان أن يتوقى الموت ، أو يهرب منه مطلقا فهو آت لا محالة (يدرككم الموت و لو كنتم فى بروج مشيدة) و قال تعالى : (و الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين). أما ما أمر الله به الانسان أن يتوقاه و يعمل على ابعاده و أن لا يعرض نفسه له فهو الحالات المؤدية الى الموت.

و من ذلك كله يتبين أن الدليل العقلى يدل على أن الأشياء التى يحصل فيها الموت عادة ، هى حالات و ليست أسبابا ، و أن السبب الحقيقى هو غيرها مما لا يقع تحت الحس.

و ثبت بالدليل الشرعى أن هذه الأشياء التى يحصل منها الموت ليست هى التى توجد الموت و لا هى أسبابا له. و دلت الآيات القطعية على أن سبب الموت هو انتهاء الأجل و أن المميت هو الله سبحانه و تعالى لقوله : (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم الى ربكم ترجعون). و قال سبحانه و تعالى : (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعته و لا يستقدمون).

الرزق بيد الله

الرزق غير الملكية — لأن الرزق هو العطاء ، فرزق معناها : أعطى. و أما الملكية فهى حيازة الشئ عن طريق شرعى .

و يكون الرزق حلالا و حراما ، و كله يقال عنه : رزق. فالمال

الذى يأخذه المقامر من غيره فى لعب القمار رزق ، لأنه مال أعطاه الله لكل منهما ، حين باشر حالة من الحالات التى يحصل فيها الرزق ، و قد غلب على الناس الظن بأنهم هم الذين يرزقون أنفسهم و يعتبرون الأوضاع التى يحوزون فيها الثروة أسبابا للرزق ، و ان كانوا يقولون بألسنتهم ان الرزاق هو الله . فأسباب الرزق من هؤلاء محسوسة ملموسة ، و هى الأوضاع التى تؤدى الى كسب المال . و قد وردت الآيات الكثيرة التى تدل بصراحة لا تقبل التأويل على أن الرزق من الله تعالى وحده و ليس من الانسان .

و لم ترد نسبة الرزق بمعنى فاعله الا لله تعالى كقوله (نحن نرزقكم) فاذا وضح هذا كان الرزق ما يحوزه الانسان بسعى أو بغير سعى و قد يكون ملكا له ، و قد لا يكون. أما الحالة التى يتم فيها الرزق و السبب الذى يوصل اليه ، فان الفرق بينهما : أن الحالات التى يأتى فيها الرزق لها أوضاع من شأنها أن توصل القائم بها اليه و ليست موصلة للرزق حتما ، فقد تأتى الحالة ، و لا يأتى الرزق ، و قد يأتى من غير حصول حالة من الحالات ، فقد يشتغل الموظف — مثلا — طوال الشهر ، و فى ساعة قبض راتبه يسرق منه ، أو يضيع أو يحجز .

ففى مثل هذه الحوادث حصلت الحالة التى تأتى بالرزق و لم يحصل الرزق .

و قد يرث الانسان أموالا طائلة من غير أن سعى بها ، و قد تأتيه هبة من جهة لا يفكر بها ، فعمله هذا يدل على أن هذه الأوضاع التى يظن أنها أسباب للرزق هى حالات ، و ليست أسبابا ، بدليل تخلفها فى حوادث كثيرة. و قد يحصل رزق ، و لا تكون حاصلة بخلاف ما لو كانت أسبابا فانها عندئذ توجد الرزق حتما لأن السبب ينتج مسببة

حتما ، و المسبب لا ينتج الا عن سببه ، أو سبب من أسبابه ، و بهذا يتبين أن هذه الأوضاع ليست أسبابا حتمية حتى توصل له .

و قد جاء الاسلام فحث على مباشرة العبد لهذه الحالات طلبا للرزق مع الاعتقاد بأنها ليست أسبابه ، و أن الرازق هو الله تعالى ، لا هذه الحالات . و قد قال : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها ، و كلوا من رزقه) . و الرسول (صلى الله عليه و سلم) يقول : (ما عال من اقتصد) و قال لمن أراد أن يوصى بماله كله للفقراء : (انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) . و يقول : (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى) . و يقول : (نعم المال الصالح للمرء الصالح) و ثبت عنه (صلى الله عليه و سلم) أنه ادخر طعاما لأهله . و هذا يدل على وجوب السعى للرزق ، و قد جعله الله فرضا على الرجال ، و حرم القعود عن السعى للرزق .

و لكن هذا السعى الذى يقوم به الانسان باعتباره حالة من الحالات يحصل فيها الرزق لا سببا للرزق ، و يقوم به استجابة لامر الله سبحانه و تعالى ، مع الاعتقاد بأنه بيد الله فقط ، و أنه وحده هو الرزاق الكريم ، و لهذا يجب على المسلمين أن يسعوا فى طلب الرزق بجهد و اهتمام فى كل حالة يمكن أن يكون من شأنها أن يحصل فيها ، و لكن من الواجب أن يظلوا على اعتقادهم أن الرزق بيد الله سبحانه و تعالى كقوله (و ما خلقت الجن و الأنس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق و ما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المعين) .

و قـولـه :

(لا نسألك رزقا نحن نرزقك و العاقبة للتقوى)

و روى عن النبى (صلى الله عليه و سلم) قال : (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم ، كما يرزق الطير ، تغدو خماصا و تعود

بطانا) و فى هذه النصوص أسند فعل الرزق الى الله و نسب اليه ، فهو يدل بصراحة على أن الله هو الذى يرزق الناس و لم ترد نسبة الرزق الى الانسان لا فى آية و لا فى حديث ، و انما وردت نسبة الرزق الى انسان يعطى غيره. قال تعالى : (و لا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما و أرزقوهم فيها و اكسوهم) فالمراد اعطوهم طعاما اذ لو كان المراد الرزق بمعنى المال ، أى كل ما يتحول لما قال : (و اكسوهم) و مثله قوله تعالى : (و اذا حضر القسمة أولو القربى و اليتامى و المساكين فارزقوهم منه) أى منحتموهم من هذا الرزق الذى أصابكم فهو أمر بالاعطاء من الرزق لا نسبة الرزق اليهم .